ليتفكروا

عوائق النهضة: الشخصنة أو طغيان عالم الأشخاص

د. بدران بن الحسن*

يمثل القرآن الكريم مصدرا للتصورات والمفاهيم والقيم والمعارف التي تهدي الانسان ليحقق رسالته في الوجود؛ سواء في ذلك تزكية نفسه ليكون جديرا بالتكريم الإلهي، او في عمران الأرض التي استخلف فيها، ليعيش فيها الحياة الطيبة ويحقق الخير.

ولذلك فإن القرآن الكريم يمد الناظر فيه بقواعد تفكير وعمل، سواء أكان الناظر فيه عاميا أم خبيرا عالما في مجال ما. وإن تجاهل المعرفة التي يوفرها لنا القرآن، أو الغفلة عنها، أو الجهل بها، يضيق حياة الانسان ويوقعها في الاضطراب.

ولعل مما زودنا به القرآن من قواعد نظر وعمل، وما وضعه من قيم تحمي المجتمع من الاهتلاك أو الاحتباس أو الأفول، ما يتعلق بموقع الأشخاص في البناء والفعل الاجتماعي، في مختلف دوائرهم، سواء أكانوا قادة للمجتمع أم أرباب أسر أم غيرهم في أي مستوى من مستويات القيادة الاجتماعية والثقافية والسياسية بل وحتى الدينية وغيرها.

ولهذا نجد القرآن الكريم يربطنا بالفكرة، وبالمثل الأعلى دائما، ولا يربطنا بالأشخاص، مهما كان علو قدرهم، ومكانتهم، ومحبتهم في قلوبنا، لأن القرآن يجعل الحق أولى بالاتباع، وكما جاء في الأثر عن سيدنا علي رضي الله عنه: «لا تعرفوا الحق بالرجال أعرفوا الحق تعرفوا أهله»، وليس العكس، لأن ربط الحق بالأشخاص له مخاطره الكثيرة.

ولذلك نرى القرآن الكريم، كما قلنا، يربطنا بالمبدأ؛ أي بالفكرة، لتكون حاكمة على الأشخاص ومواقفهم وتصرفاتهم، فلا يقع فيهم غلو، ولا ترتبط بهم الفكرة ارتباطا مرضيا، يصير عائقا أمام استمرار الفكرة إذا وقع للشخص مانع أو انحراف أو غياب.

ولعلنا كلنا ندرك مركزية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعصمته، وكمال شخصه، ومكانته باعتباره أسوة حسنة لنا، وقدوة مرتضاة من الله تعالى، في كل شيء. وبالرغم من ذلك ينبهنا القرآن أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما هو إلا نبي، ولا ينبغي أن ننقلب أو نرتد إذا أصابه مكروه. ولهذا ينبهنا إلى خطورة تجسيد الحق، حتى مع النبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي ذاته يخضع للحق، ويتبع ما يوحى إليه من وحي يحمل الفكرة الإسلامية إلى الناس. يقول تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) [آل عمران: 3/ 144]. فبالرغم من أهمية شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وبالرغم من استحالة خطأ أو انحراف من الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولكنه مَن أجل الإشارة إلى خطر تجسيد الأفكار بحدّ ذاته (ابن نبي، مشكلة الأفكار، ص82-81)، جاء التنبيه للصحابة وهم في وسط معركة أحد، لما سمعوا أن رسول الله قد استشهد، بأن لا يتراجعوا عن الفكرة والمبدأ الذي دعاهم إليه وآمنوا به. فهذا درس القرآن للناس أن يضعوا في وعيهم خطر تجسيد أو تضخم الأشخاص، وليس الانتقاص من مكانة النبي صلى الله عليه وسلم أو التهوين من قدره.

وما يمكن أن نأخذه من درس في سعينا اليوم نحو تحقيق مشروع النهضة الحضارية واستعادة دورنا في التاريخ أن تضخم وطغيان عالم الأشخاص، وأن الأفكار المجسدة في اشخاص، يترتب عليها نتائج ضارة على مختلف الاصعدة.

فعلى الصعيد الفكري، فإننا عندما نربط الأفكار بالأشخاص نحرم من الفكرة الصحيحة الفعالة إن جاءت من خصم لنا، ونتورط في تبني فكرة فاقدة للأصالة والفعالية إذا جاءت ممن نتعلق به ونضخم شخصه. وما لم نجرد الفكرة عن الشخص فلن نستفيد من الأفكار ولن نعرف قدر الأفكار والأشخاص.

ويمكن بالنظر إلى تاريخنا وتاريخ غيرنا من الأمم نظرا نقديا ندرك حقيقة هذه القضية.

ولعل هذا يذكرنا بكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تنهى عن الشخصنة وتضخيم الأشخاص وأهمية التطلع إلى معرفة الحق في ذاته. فاعرف الحق تعرف أهله، والجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.

أما على الصعيد الأخلاقي؛ فهناك خطر مزدوج عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما؛ ذلك أن أخطاء الشخص سينعكس ضررها على المجتمع الذي جسّد في شخصه مثله الأعلى. وسائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردّة حقيقية يعتقد عبرها بإمكانية التعويض عن الإحباط باعتناق مثل أعلى آخر. وفي كلنا الحالتين فنحن نعلي من الأشخاص على حساب الأفكار. وقد سبب هذا الاستبدال كثيراً من الضرر بالأفكار الإسلامية المتجسدة بأشخاص ليسوا أهلاً لها ولا لحلها. وانظر حولك إلى تجارب الصحوة والتجديد، والتجارب الدعوية والفكرية، وانظر إلى أشخاص تحملوا عبء قيادة دولنا دينيا أو ثقافيا أو سياسيا بعد الاستقلال كيف تسببوا في كوارث وانتكاسات في صفوف جماهير الأمة بسبب نكوصهم الاخلاقي أو فسادهم المالي أو الاجتماعي، مما جعل كثيرا من مبادراتهم الصحيحة في ذاتها تنقلب إلى مبادرات معكوسة أو تفقد سندها الجماهيري لحساسية الناس من الانحراف، ومنهم من تحول من قيادي للخروج من التخلف إلى شخص شعبوي أغرق أتباعه في خطابات مناقشة لمصالح الامة ومصالح الجماهير نفسها، بسبب الشخصنة وتقديس الأشخاص، مما جعل الناس لا ترى الحق ولا ترى انحراف هذه الشخصيات عن الحق، فأوردونا المهالك.

وأما من الناحية السياسية، فإن تضخم عالم الأشخاص يمنعنا أحيانا من استخراج العبر من الفشل، وذلك بتجسيد أسباب الفشل فوراً في شخص ما، بدلاً من التفكير ملياً وجدياً بالدروس التي نستخرجها منها (مشكلة الأفكار، ص 82-83). ولعل النظر في محاولات التنمية السياسية في عالمنا العربي، وكيف آلت إلى إخفاقات كثيرة بسبب تمركز الأشخاص بدل الأفكار والبرامج.

وانظر إلى ثورات الربيع العربي كيف آلت بسبب الاعتقاد السائد ان صمام الأمان لمجتمعاتنا هو فلان أو فلان، بدل التركيز على تنمية ثقافة الحرية والقانون والعدالة وكرامة الانسان وتحقيق تنمية ونهضة حضارية، ولهذا تحولنا إلى مجتمعات تخضع لدكتاتوريات شعبوية في مختلف مستويات المجتمع، تدور في فلك أشخاص ينقلبون بنا حيثما شاؤوا، لأننا لسنا محصنين بالفكرة، بل خاضعون لأشخاص.

*مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة قطر

توبـــــة الأدباء

خميس بن عاشور*

من أبي نواس إلى طه حسين ومن الطاهر وطار إلى محمد ديب رحمهم الله ..نزعة إنسانية في البشر في كل عاقل عندما يثوب إلى عقله بعد أن يكبح تعاقب السنين وأفول الأعمار شهوات النفس وجموح الفكر المتمرد ...وبعد أن تنطفئ أضواء الشهرة و تنزوي النفس تناجي صاحبها وتتلطف نحو خالقها ..

أما آن لهذا التحليق في عالم اللامتناهي أن يتوقف ...

عندما تصطدم الروح بجدار الصمت والتغافل يستفيق الإنسان وهو قاب قوسين من بصيص الأمل المتبقي من بقايا ثوان متعددات لنهر الحياة المتلاشي شيئًا فشيئا

محمد ديب [1920م/2003م] الكاتب الذي فاز أدبه بجائزة الفرانكفونية سنة:1994م، والذي صاحب ألبير كامو وجون كارول وبريس باريان ومولود فرعون وغيرهم من الأدباء العالميين ..

أصدر محمد ديب أول عمل أدبي عام 1952 وهو روايته الشهيرة «البيت الكبير»، ثم أصدر رواية «من يذكر البحر؟»، ثم رواية «الحريق» التي تنبأ فيها بالثورة الجزائرية والتي اندلعت بعد صدورها بثلاثة أشهر. وفي عام 1957م نشر رواية «النول». ثم توالت كتاباته السردية ما بين 1970م و1977م فنشر ثلاث روايات هي «إله وسط الوحشية» عام 1970م، و«سيد القنص» عام 1973م، و«هابيل» عام 1977م.

ترك محمد ديب أكثر من ثلاثين مؤلفا منها ثمانية عشر رواية آخرها «مشيئة الشيطان»، إلى جانب ترجمته للكثير من الأعمال باللغة الفنلندية إلى الفرنسية.

آثر العزلة في منفاه الاختياري الباريسي سيما بعد استقلال الجزائر ولم يدل بأي تصريح إلى غاية اندلاع الحرب الأهلية (العشرية السوداء) في الجزائر هذه الحرب التي صدمت الكثيرين في قناعاتهم السابقة يقول: بعد الاستقلال، تولّدت لديّ رغبة جامحة في اكتشاف كل ما يتعلق بهويّتي المستعادة، وخاصة أنني وجدت نفسي حين استعدتُها أعيش مضطرا في بيئة أجنبية وغير مسلمة. بُعدي عن بلادي دفع بي إلى تعميق نظرتي وتحليلي للمتخيّل الثقافي العربي الإسلامي الذي أنتمي إليه، وبذلك ازددت قربا وتعلقا بالثقافة الإسلامية بفعل كوني أعيش بعيدا عن البلاد الإسلامية. وأعتقد أن أهم انشغالاتي الفكرية منذ أن صرت ثاويا في المنفى أنني انكببت في التأمل بهذا الجانب الروحي للتراث الإسلامي، وما فيه من ثراء، وعن أحداث العشرية الدموية في الجزائر قال: ومهما تضاربت آراؤنا ومواقفنا بخصوص هذه المسائل، فإن دورنا نحن الكتّاب والمثقفين يجب أن يكون محاولة فهم مسار التاريخ وتحليله والتفاعل معه، وليس محاولة تصوير هذا التاريخ بالشكل الذي نريده أو نتوهّمه أو نتمنّاه..

وعن تمسكه بهويته يقول : إن أخيلتي وتصوراتي نابعة من اللغة العربية، فهي لغتي الأم، إلا أنها مع ذلك تعتبر موروثا ينتمي إلى العمق المشترك، أما اللغة الفرنسية فتعتبر لغة أجنبية مع أنني تعلمت القراءة بواسطتها، وقد صنعت منها لغتي الكتابية..

هذه نبذة مختصرة عن أديب جزائري كبير أطفئت عنه الأضواء لأنه أولا: لم يكن من المطبلين للنظام الذي حكم الجزائر المستقلة أو الوطنية المزيفة غير المنتجة كما يقول فرانز فانون في كتابة: معذبوا الأرض – مع أنه سخر قلمه و أدبه في سبيل أن يرى بلاده تنال استقلالها من مستعمر شرس وهمجي–، ثانيا: إن توجهاته في السنوات الأخيرة من حياته لم تكن امتدادا لفكره الذي حلق به عاليا في دنيا الأدب العالمي لأنه اكتشف بعد حين من الدهر أصوله العربية الإسلامية التي اعتبرها أساسا لمشروع سياسي حقيقي حادت عنه أغلب التيارات غير الإسلامية التي عملت على ترسيخ فلسفة الاستعمار في طبعة وطنية مقلدة، خالية من الإبداع والتقدم والانعتاق من إرث ثقافي مقيت لا يزال ليله البهيم جاثما على مناهجنا في الإدارة والتعليم وأساليب الحياة..

هوامش:

–1 عثمان تزغارت..هكذا تحدث محمد ديب.

–2 الجزيرة نت. الأديب الجزائري محمد ديب.. مبدع عربي بلغة موليير.

*جامعة أم القرى مكة المكرمة
benashur@gmail.com